مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 13 العدد: 03 السنة 2021 ص 14 – 33

تاريخ الإرسال: 2020/06/02 تاريخ القبول: 2021/03/24
تاريخ النشر : 2021/06/01

المنعطف البيوتيقي في الفكر المعاصر
مسار للتنمية
theBiotic Turn in contemporary thought
the course of development

الطالب الباحث: صلعة محمد[1] ؛ د. حلوش مصطفى
جامعة سيدي بلعباس salaadjihad@yahoo.com
hallouchemustapha@yahoo.fr

الملخص:

ما من شك في أن العلم المعاصر قد أثر بعمق في حياة الإنسان، خاصة خلال السنوات القليلة الماضية، وهذا التطور له– بطبيعة الحال– جوانب إيجابية كثيرة. لقد أصبح العلم المظهر المهيمن في ثقافتنا، ولكن لا ينبغي لنا أن نستبعد حضور الممارسة الفلسفية أو أن نقلل من أهميتها، إذ هي أكثر ارتباطا بالأفعال الإنسانية وأكثر اهتماما بالمشاكل الخطيرة التي تواجه مجتمعنا. ومن الناحية الفلسفية، فإنه من الضروري أن ندرك الجوانب السلبية للممارسة العلمية –لاسيما في مجالات البيولوجيا والطب–، فالحاجة إلى تجنب مثل هذا الوضع الخطير هي التي أدت إلى ظهور البيوتيقا. وبالتالي، فإن الهدف من هذه الورقة البحثية بيانُ العلاقة بين العلم والفلسفة وفقا لقيم الأخلاقية الإنسانية، فارتباط ذلك بالتنمية يمكنه أن يضمن تعايشا آمنا وحياة أفضل لجميع المخلوقات.

الكلمات المفتاحية: البيوتيقا، الأخلاقيات التطبيقية ، النقد الفلسفي، الفكر المعاصر، التنمية.

Abstract:

There is no doubt that modern science has deeply influenced human life mainly during the few last years, and this development has of course many positive effects. Science has become the dominant aspect in our culture but we should not exclude the presence of the philosophical practice or minimize its importance because this latter is more related to human actions and more interested in serious problems that face our society. Philosophically speaking, it is so necessary to be aware about the negative aspects of scientific practice that may destroy our life, mainly in the domains of biology and medicine. The need to avoid such dangerous situation has led to the emergence of Bioethics. Hence, the aim of this new discipline is to renew the establishment of relationship between science and philosophy according to human ethical values that could assure a safe coexistence and a best life for all creatures.

Keywords: Bioethics, Applied Ethics, Medicine, Biology, Philosophical Critique. Development

---

المؤلف المرسل: صلعة محمد ، salaadjihad@yahoo.com

مقدمة:

اتسعت دائرة الممارسة البيوتكنولوجية في القرن العشرين لتمس مختلف مجالات الحياة الإنسانية، خاصة بعد اكتشاف الهندسة الجينية، فظهرت بذلك تطبيقاتها في مختلف المجالات، وفي المجال الطبي –على وجه الخصوص–. فهي تعد مرحلة حاسمة في تاريخ الإنجازات العلمية لما لها من تأثير على الكائنات الحية –عموما– وعلى الإنسان بصفة خاصة، وهو الأمر الذي بدا واضحا نظرا للعوامل المختلفة

والمتعددة ولمدى صعوبة التعامل مع التحديات الأخلاقية التي تفرزها هذه التقنيات الحيوية المعاصرة والمتسارعة، مما أثار تساؤلات وجدلا أخلاقيا بين رجال الفكر واللاهوت والقانون بفعل تداعياتها التي تصل إلى تغيير الطبيعة البشرية، وكذلك إلى ظهور منزلقات أخلاقية والابتعاد عن الغايات السامية التي تهدف إلى الرقي بالحياة البشرية. فالبحث في الأسس الأخلاقية لممارسة مهنة الطب بشكل عام باعتبارها ممارسة إنسانية يهدف إلى رسم السلوك الصحيح أمام الأطباء في علاقتهم مع المرضى، ويبنى على الأسس القيمية بعيدا عن الانجراف وراء النوازع والأهواء البشرية، وسيساهم في بلورة الفكر المعاصر لمنطقه الأخلاقي للتحكم في هاجس القلق الإنساني الكوني الذي أنهك الكرامة الإنسانية، وأثّر في القضاء على الثوابت الأخلاقية العريقة، لاسيما الثابت الفلسفي منها الذي يرافق العلم بطريقة نقدية، حيث استطاع بجرأة سؤاله أن يبلور رؤية شاملة في ظل تجاوز كل الأعراف الدينية والأخلاقية التي ما فتئت تشكل حاجزا للحفاظ على كينونة الإنسان، ومن الجهل الظن أن العلم يسيطر على كل الاحتمالات، بل هو –في كثير من قضاياه– لم يعد قادراً على إثبات مقولة أو نفيها. ليس المهم متى تبدأ الحياة لكن الأهم هو متى تصبح للحياة قيمة أخلاقية، لذلك عندما تطرق الفلسفة باب الهندسة الجينية، فهي لا تنظر من زاوية تحليل التدخل أو تحريمه، بل تطرح إشكالا كبيرا يمس جوهر الفعل الإنساني، مفادُه: هل يجب ترك الفعل الإنساني دائماً من دون حدود، فذلك الأمر الذي أسس لتجلي خطاب فلسفي من خلال الأخلاق التطبيقية، وهو ما يعرف بالبيوتيقا.

وعليه نتساءل عن كنه مساهمة الفكر المعاصر في بلورة الأخلاق الطبية ومصير التقدم الإنساني في عالمنا المعاصر؟ إلى أي مدى استطاعت الفلسفة –من خلال احتضانها لهذا العلم– الاستجابة لصرخة الإنسان وصون قيمته والمساهمة في تنميته؟ فضلا عن أبرز التحديات التي رافقت هذا الخطاب الجدير بالاهتمام، معتمدين

في ذلك على المنهج الوصفي التحليلي في مناقشة الأسئلة المنبثقة عن الإشكالية، من خلال جمع المعلومات واستقصاء آراء الفلاسفة والباحثين وتحليلها، قصد مراعاة نجاعة هذا الخطاب في الواقع المعاصر والاستفادة منه.

1- إحياء الأخلاق التطبيقية ضرورة أخلاقية:

تعرف الأخلاق التطبيقية بأنها مجموعة من القواعد التي تسعى إلى تنظيم الممارسة داخل مختلف الميادين العلمية والتكنولوجية، وما يرتبط بها من أنشطة اجتماعية، واقتصادية، ومهنية وبيئية، كما تسعى إلى حل المشاكل الأخلاقية التي تطرحها تلك الميادين، اعتمادا على ما يتم التوصل إليه بواسطة التداول والتوافق وعلى المعالجة للحالات الخاصة والمعقدة والمستعصية[1] ، فهي إذن: مجموعة من القواعد العملية تبحث في الواقع العملي للطب والبيولوجيا" أو "البيوإتيقا :La bioéthique التي ترتبط بالإنسان، وما تطرحه –بعد تبلور ما يعرف بتكنولوجيا الحياة Biotechnologie- من تساؤلات تتعلق مثلا بـ"الإنجاب الاصطناعي Procréation artificielle" ، "الموت الرحيم "Euthanasie من قبيل: هل يُقدم الأطباء على نزع أجهزة التنفس والتغذية الاصطناعية عن المرضى الذين يعانون من غيبوبة طويلة الأمد رحمة بهم، أم يواصلون إبقاءهم أحياء بشكل اصطناعي رغم عدم جدوى حياتهم –أي ما أصبح يعرف بـ"الإصرار على مواصلة العلاجAcharnement thérapeutique - ؟ فهذه مشكلات أجبرت الإنسان –لما واجهته– على البحث عن حل، وهو الأمر الذي استلزم الالتفات إلى الأخلاق التطبيقيةEthique appliquée. ومن هذا السياق، لاحظ الفلاسفة أن موضوعهم الفكري حول القيم يعود إلى الحياة، لكن الأمر يختلف على ما كان عليه[2]، فظهرت إثر هذا الاهتمام تخصصات عديدة مثل الأخلاق البيئية، الأخلاق السكانية، الأخلاق الطبية Ethique Médical والأخلاق الزراعية. وهكذا اتسع الخطاب البيوتيقي في كل المجالات الحياتية، حيث أصبح لا يستند إلى دعامة

صورية بحته؛ بل غدا إرشادا أو اختيارا معززا بالواقع ويتعلق أكثر بالعلوم [3] وما أفرزته البيوطبية وتقنياتها من مشكلات تمس الكائن الحي –عامة– والكائن البشري –خاصة– وهي مشكلات لا تحل إلا بتدخل قيمي أخلاقي ليرسم الخطوط التي لا يجب تجاوزها لما يشكل ذلك خطرا على الإنسان. لذلك يرى هابرماس أنه يجب تجنب هذه الردة العقلية والحفاظ على شعلة العقلانية متقدة، فانهيار القناعات الأخلاقية سيجرنا حتما إلى عالم الغاب، كما أننا نتوقع أن الأخلاق التطبيقية ستكون إحدى أهم المباحث الفلسفية وأكثرها خصوبة وثراء في هذا القرن، لذلك يبدو أنه سيكون قرنا أخلاقيا بامتياز.

2– االخطاب الفلسفي المعاصر:

مما لا شك فيه أن الفلسفة سؤال مستمر عن الحياة الإنسانية وفحص دائم للإنسان في أبعاده الفردية والاجتماعية والكونية، وقد شكلت أحد أهم أشكال معرفة الإنسان وجسدت النزوع البشري للبحث الدائب، فهي نظرة إلى العالم الطبيعي والاجتماعي ومكانة الإنسان فيه، فارتبطت بتطور المجتمع لتأتي تعبيرا عن عصرها. ومن هنا تثار التساؤلات العديدة حول الوضع الإنساني الذاتي والكلي الشامل باعتبار أن الإنسان يعيش في خضم التحولات الكونية المعاصرة التي تعيشها المجتمعات البشرية إجمالا، حيث ظهرت نماذج فكرية إصلاحية تنموية من أجل مواكبة التطور الحاصل؛ لتساهم بشكل فعال في تصحيح مسارات هذه التحولات المجتمعية[4]. وفي المقابل يعرف التطور العلمي التجريبي تراكما معرفيا، وانفجارا رهيبا تقنيا وفكريا، ويفتح بذلك أفُقا جديدا يجبر العلوم الإنسانية والاجتماعية على هيكلة نفسها لمسايرة هذا التطور[5]. إذا كان العلم لا يفكر –حسب "جاستون بشلار GASTON BACHELARD*"(1898-1962) -؛ فإن الأبحاث العلمية تجاوزت حدودها في مجال البيولوجيا، وتعدت على الكرامة الإنسانية، وبدأت تتعدى على جوهر الإنسان،

وتجاهلت خصوصيته المقدسة. ومن هنا ظهرت تحديات جديدة ووظائف أكثر أهمية للعلوم الإنسانية والاجتماعية. فالتغير الذي حدث في مجال البيولوجية والطب الإنساني أدى إلى طرح مفاهيم قديمة في ظاهرها، حديثة في مفهومها مثل: المسؤولية والاختيار، بداية الحياة، وقدسية الحياة ،الهندسة الوراثية Genetic Engineering [6]، لذلك فهي بحاجة إلى إعادة الصياغة لتتفق مع التطورات العلمية الجديدة، حتى تتمكن من صون الطبيعة الإنسانية، لذلك نستطيع الجزم بأن للفلسفة قولها الفاصل في كثير من المواقف التي تتسبب في هدر الانسان الإنسان وكرامته، فقد كان للفلاسفة خطابٌ في الدرس البيوتيقي وأبرزه الفيلسوفان الألمانيان "هانس جوناس*-HANS (1929– JONAS) والفيلسوف "يورغن هابرماس*"HABERMAS JURGEN في آراء قاطعة في رد الاعتبار للوجود الإنساني في مواجهة قضية الاستنساخ البشري Clonage Humain، والموت الرحيم Euthanasie، والحمل بالنيابة وبيع البُييضات وغيرها[7].

وكلها مواقف فلسفية استطاعت أن تكسب الرهان مقابل آراء الكثير من العلماء، فتمكنوا من استغلال إبداعاتهم البيولوجية التقنية التي تجسد تطور العلمي بالنسبة لهم[8].

3– انبثاق الدرس البيوتيقي:

ظهر مصطلح البيوتيقا bioéthiques أو"أخلاقيات الطب والبيولوجية" لأول مرة في عام 1970 من طرف العالم الأمريكي المتخصص في أمراض السرطان؟ "فان رانسيلاير بوتار"Van Rensselaer Potter ، حين قدم مقالا موسوما بعنوان البيوتيقا علم البقاء على قيد الحياة Bioethics Science of Survival، وقد اعتبر تخصصا جديدا يهتم بالمشاكل الأخلاقية التي تطرحها الممارسة التقنية العلمية في ميدان الطب، والقيم الإنسانية وما يرتبط بهما[9] من قضايا قانونية، ودينية وفلسفية

واقتصادية؛ غايتها الأساسية في ذلك اقتراح المبادئ الأخلاقية التي يجب أن تنظم ممارسة الأطباء، وليس هذا مقصدها فحسبُ، بل تتجاوز مجال الطب والبيولوجيا مشكّلة نواة للتفكير في كيفية وضع تنظيم أخلاقي وقانوني للممارسة المهنية عموما [10] . لكن هنا يمكن الإشارة إلى أن بعض المهتمين بالدراسات التاريخية للمصطلح يؤكدون أن النشأة الأولى قد تعود إلى عام 1945؛ بعدما قدم دعوى قضائية ضد الانتهاكات الإنسانية التي ارتكبتها الأطقم الطبية النازية. أما الدراسات المعاصرة فتنسب ظهور المصطلح تاريخيا إلى ثورة اجتماعية وثقافية داخل الولايات المتحدة الأمريكية؛ حينما نادت بمجموعة من الحقوق المدنية من جراء تصرفات لا إنسانية تتعارض مع أخلاقيات الطب، أثارت استهجان الكثير من المنظمات غير الحكومية دعمتها منظمات تنادي بحرمة الإنسان، من ذلك المطالبة بتمكين المرضى من حقهم في تقرير مصيرهم، ثم أتسع مدلولها ليشمل المشاكل التي تطرح في إطار العلاقة بين الإنسان باعتباره نفسا وروحا وكائنا حيا، وبين محيطه الطبيعي والاجتماعي. وعندما قفز علم الأحياء قفزته الجديدة في مجال المورثات؛ ظهرت تطبيقات طبية جديدة تخص التحكم في الإنجاب والنسل بصفة خاصة، فبدأ مصطلح البيوتيقا ينصرف إلى هذه التطبيقات والمشاكل التي تثيرها من الناحية الأخلاقية. [11]

إن أخلاقيات البيولوجيا هي جزء من الأخلاقيات العامة، ويسوغ أن نعتبرها التفكير أو البحث الأخلاقي مطبقا على ما يجود به التقدم المتسارع الذي يشهده الطب البيولوجي –وتشهده بتعبير أدق معارف طب الأحياء وتقنياته– من مسائل. والهدف من أخلاقيات البيولوجيا –شأنها في ذلك شأن أخلاقيات الطب– هو العمل على تطبيق قواعد أخلاقية كونية من نحو تجنب القتل وتجنب إحداث الضرر وما إلى ذلك في الميدان الطبي، وما تعلق بواجبات الطبيب. لكن ما تختص به أخلاقيات البيولوجيا أنها

تضيف إلى القطبين الرئيسين في أخلاقيات الطب –أي علاقة الطبيب بمرضاه وعلاقة الأطباء فيما بينهم– قطبا ثالثا هو: المجتمع حالا ومستقبلا.

ذلك أن ميدان اشتغال العمل الطبي قد اتسع فتجاوز ما يقتصر على مداواة ورعاية الشخص/المريض، ليطال ميادين تقتضي –علاوة على قرار الطبيب وطلب المريض أو موافقته– خيارات مجتمعية، بل –وفي أحايين– تتعدى إلى توجهات سياسية ودينية. وهذا يصدق على مسائل عدة، من قبيل تحديد النسل والإخصاب الاصطناعي والتشخيص قبل الوضع أو قبل الإجهاض، والتجريب الطبي وزرع الأعضاء والصناعة الجينية والمداواة الجينية، سواء على الخلايا البدنية أو الجنسية، والإصرار على الاستمرار في علاج المريض الميؤوس منه والقتل الرحيم. وتبرز هذا التطبيقات –التي تتخذ في الغالب صفة تطبيقات طبية للفتوحات التكنولوجية– مدى اتساع مجال تحكم الإنسان في جسم الإنسان، من لحظة التكوين الأولى البادئة للحمل إلى آخر لحظات العمر. وهي تقتضي البحث عن معايير أخلاقية هدفها الحفاظ على الطابع الإنساني الأصيل الذي يتميز به العمل الطبي، والتأكد من التزام تطبيقات علم الطب به، وصياغة تلك المعايير

2– نقد التقدم التقني الحيوي:

إذا كان التقدم التقني قد عاد على الإنسانية بنتائج ذات قطبين، القطب الإيجابي: وهو ما أحدث نهضة في مسار الحياة الإنسانية عامة، والقطب السلبي ومنه ما ميز مسار هذه الحياة من اختراقات للوظيفة الطبيعية[12] للجسد البشري؛ فإن هبرماس يقدم في هذا المجال نقدا لدعاة التقنية الليبرالية الذين يشرعون لاختراق حرمة الجينات الوراثية للإنسان، وفق ما يعتبرونه مبدأ للحرية [13]، ويقول "أن أسوء أمراض العالم الحديث هي عندما يتصرف الإنسان على عكس طبيعته البشرية نتيجة مواكبته للتقدم العلمي، حيث أحدث نوعا من القطيعة بين ما يعيشه وما يجب أن يتحلى به من أخلاق[14] .في نفس

السياق يرى "إدغار موران" Edgar morin * (1921-) أن الشر المتأصل في الإنسان يلتقي اليوم مع الشرور والعنف الذي أوجدته التقنية، ويقول: "تطلع علينا الهمجية الحقودة من أغوار التاريخ لتتكالب مع الهمجية باردة الصقيع والمتمثلة في التقنية الخاصة بحضارتنا، إذ إن التقنية لا تعرف سوى الحسابات وتجهل الأفراد وأجسادهم ومشاعرهم وأرواحهم" [15] .من وجهة أخرى لا يمكننا أن ننكر أن للعلم والبحث العلمي وتطبيقاتهما بواسطة التدخل التقني منافع جمة أفادت البشرية وعادت عليها بالنفع الكبير، ويسرت لها ظروف العيش اللائقة وساهمت في تنميتها، وفي التخفيف من حدة الأمراض والأوبئة، ومكنتها من استثمار الموارد الطبيعية ، فقد أتاحت التقنية الحيوية آمالاً عريضة لمواجهة الأمراض ومقاومتها[16] ، ولعل دورها في مكافحة الأوبئة من خلال صناعة المضادات الحيوية، والإنزيمات والنباتات الصيدلانية والعلاج الجيني لخير دليل، لكن الكثير من التساؤلات الأخلاقية تفرض نفسها بقوة حول هذه التقنيات الحيوية بعد اكتشاف الاختراقات الطبية لجسم الإنسان.

3- موضوع البيوتيقا ومجالها:

تكمن أهمية هذا المبحث الجديد الذي أفرزته التطورات البيولوجية بفعل التقنيات الجديدة لم تكن معروفة مسبقا؛ في أن البيوتيقا تمثل السؤال الأخلاقي حول موضوع الطب، مما يستلزم مراعاة الاختلاف الجلي بينها وبين أخلاقيات الطب، التي تهتم أساسا بضبط أخلاقيات ممارسة المهنة، لذا نجدها تتميز في غايتها من خلال طرح مبادئ أخلاقية لضبط توجهات ذلك التطور، مع السعي إلى تنظيم مجال عمل الأطباء ورسم الحدود المشروعة لتدخلات العلماء والأطباء التي تتعلق بالكائن الحي. ولا تسعى إلى التنظير لما ينبغي أن تكون عليه الممارسة العلمية على الجسم، والممارسة التقنية المترتبة عنها فقط، وإنما تناقش النتائج السلبية المترتبة عن هذه التحولات التي تمس حقوق الإنسان وكرامته.

ومن مهام البيوتيقا باعتبارها فكرا أخلاقيا جديدا هو توسيع مفهوم حقوق الإنسان، وإعادة صياغة معاني ومفاهيم الحرية والمسؤولية في ميدان البحث العلمي[17] حتى تقف ضد انتهاك القيم الإنسانية، لذا شكل دور الفلاسفة في مهام البيوتيقا الضمير الإنساني الضامن لهذه القيم في مواجهة التقنية المعاصرة، خاصة في إمداد الفكر الأخلاقي بأدوات التأمل، والحكمة، والتحليل ونقد المعضلات التي تطرحها هذه الممارسة، في قضايا الموت، والإنجاب، وزرع الأعضاء. كما أن الأجوبة على هذه الإشكاليات المرتبطة بحياة الإنسان من جهة وبجسده من جهة أخرى؛ تواجه جدلا واسعا بين المصالح المتعارضة نظرا للتجاذبات الفكرية التي تتعدد بين نزعة البراغماتية والمثالية[18] والإنسانية وغيرها. لهذا يمكن القول أن البيوتيقا تعبر عن التقاء العلم بالأخلاق، بمعنى أنها تعبر عن حالة وعي أدركت العقل الغربي بعد التجارب والتوظيفات والتقنيات المطبقة على الجسد البشري، والتي فتحت الباب على مصراعيه أمام إمكانية التحكم السهل بأعضائه والتلاعب بها.[19]

لقد أمكن للبيوتيقا بما طرحته من قضايا متشعبة أن تلتمس بالأساس قدسية الحياة ككل، وأن تعيدها إلى واجهة البحث بما يعرف بالدرس القيمي عموما، وأن تعمل على توعية الإنسان المعاصر بما يحدق به من مخاطر ناجمة عن التقدم العلمي بكل أبعاده في المجالين البيولوجي والطبي بشكل خاص، بل تتعدى ذلك إلى دائرة أوسع وأشمل تخص حياة الإنسان أين ما وجدت [20]، وهذا ما يكسب الخطاب البيوتيقي الفلسفي الرهان الفكري المتنازع فيه بين العلم والفلسفة والدين، وعليه ينبغي لأخلاقيات البيولوجيا التسليم بمنافع التقدم وأوجهه التي تطرحها العلوم الطبية، إلا أنه لزم عليها أن تتقيد بالحذر إزاء المخاطر التي تنطوي عليها، فمن شأن أوجه التقدم وضع حد للآفات التي تلحق الضرر بصحة الإنسان منذ العصور الغابرة.[21]

4- عودة الأخلاق والنقد الفلسفي:

منذ أن اعتقد العلماء أنه بإمكان تفسير الكون عن طريق قانون برد الظواهر إلى علة ومعلول؛ انتقل هذا الاعتقاد إلى علماء البيولوجيا أيضا، خاصة بعد أن أمدتهم الداروينية بالنماذج التي يستندون عليها، فنظرية التطور تعتبر أقوى محاولة لرد علم الأحياء إلى فيزياء والكيمياء، أي رد الطبيعة الإنسانية بما تتصف به من ملكات إلى القوانين التي تتحكم في المادة، وهو ما جعلهم يثقون في التفسير الفيزيوكيميائي ومطابقته للتفسير البيولوجي الضامن لنجاحهم،[22] غير أن التطبيقات التي تخص ميدان علم الأحياء وعالم المورثات تطرح اليوم قضايا أخلاقية من نوع آخر، إذ الأمر لا يتعلق بالتجريب على الإنسان؛ بل بتغيير الإنسان وبهتك حرمات لم يطَلْها العلم من قبيل جوانب الجنس والحياة والموت.

وهنا يطرح المفكر العربي "طه عبد الرحمان (1944-)" السؤال التالي: "إلى أي مدى يجوز تسخير العلم للتحكم في هذه المجالات ؟" ذلك هو مصدر البحث في ما أصبح يطلق عليه البيوتيقا أو أخلاقيات علم الأحياء

إننا اليوم ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين نجد أنفسنا أمام الحاجة إلى العودة إلى الأخلاق، وأمام ضرورة تأسيس أخلاقيات جديدة تفرض سلطتها

على العلم [23]. وإذا كانت التقنية عاملا مهما في التقدم كما تعرفه علوم الطب؛ فإننا نستدل هنا برؤية المفكر الفرنسي"إدغار موران" نحن أمام خطر غامض يحدق بمستقبل الإنسان الذي يتمثل في النزعة الآلية" التي تسيطر على الوجود البشري كله[24]. ونظرا لأهمية هذا المشروع الإيتيقي الضخم الذي آثار نقاشا واسع النطاق في الفلسفة العلمية المعاصرة وكان هاجس الكثير من الفلاسفة من بينهم " يورغن هابرماس"، فإننا نجدهم ينخرطون بأشكال مختلفة تحت راية مقولة إيتيقا المسؤولية، إذ إن هذه الإيتيقا تنبه الإنسانية إلى مخاطر التقدم التكنولوجي[25] الذي يهدد البنية

الأرضية نفسها، وهذا ما كان في صميم المشروع الفكري للفيلسوف الطبيب "هانس جوناس "، حيث سعى إلى تبني وتأسيس إيتيقا أنطولوجيا المسؤولية، ويتعلق هذا الاتجاه بمشروع إيتيقي سياسي عميق يستشعر الخطر الذي يهدد الحضارة ويستفز المشرعين والحقوقيين نحو نوع من المسؤولية الأنطولوجية إزاء مستقبل البشر ومصيرهم[26].

وفي نفس السياق؛ يذهب موقف "يورغن هابرماس" عندما يصرح بأن "ما يضعه العلم تقنيا بتصرفنا، يجب أن يكون خاضعا للرقابة الأخلاقية[26]، إلى أن يجعلنا –بالمقابل ولأسباب معيارية– غير قادرين التصرف بها على هوانا. ويضيف: "إنما شأن التقنية هو كونها حدث يلزم أن ينظر ويتأمل ويفكر فيه، فلا مجال للتفاؤل أو التشاؤم، كما لا مجال للتملص من المسؤولية والعمل باللامبالاة."[27]

وبالمثل يصل "فرانسوا داغونيFrançois Dagognet(1924-)*" في مقارباته النهائية، إلى أن الفلسفة اليوم وعلاقتها بالعلوم بشكل عام وعلم البيولوجيا على وجه الخصوص، هي طريقة إثبات ضرورة توجيه البحوث الفلسفية إلى العناية بالواقع أكثر، ومحاولة فهم ظاهرة العلم فهما أعمق[28].

فمحور دراسته تتجه نحو الإنسان الذي يصنفه في أعلى قمم الكائنات الحية؛ عندما يصرح بتعبير مجازي عن الجسد بقوله: "لم يكف الجسد عن الكلام، وعلينا أن نستمع إلى لغته "[29]. وبحكم ممارسته مهنة الطب، كان موضوع دراسته الفلسفية هو العلوم الطبية، وهو الأمر الذي جعله يعتقد قابلية هذا العلم للتناول الفلسفي الإبستمولوجي ويجزم بذلك، وأنه ينبغي التفكير فيه، وأن للفلسفة اليوم أهمية خاصة أكثر من أي وقت مضى لأنها تهتم بالمستقبل وتهتم بما تنتجه العلوم، أين نجد القلق أكثر من أي ميدان آخر. إن العالم اليوم لا يستطيع تقرير ما ينبغي فعله أو ما لا ينبغي، فهو لا يختار في مجال القيم، إنها مهمة الفيلسوف متمثلة في صنع التفكير البيولوجي وبلورته.

إن مبدأ الاحتياط له في الفلسفة قيمة، يقول داغوني: إننا نعتقد بالفعل أنه في استطاعة الفيلسوف –بل ينبغي عليه– أن يأخذ هذا الدور حتى يمزق هذه الذرائع[32] ويعيد النظر في نتائج التطبيقات، ويدعو إلى وضع إطار أخلاقي منظم للبحوث البيولوجية، والمتمثل في فلسفة بيولوجية. [30]

فالفيلسوف في نظر "داغوني" لا يستطيع حل المشكل فحسب؛ بل يستطيع بما يكسبه من تصورات ورؤى ونقد وتحليل نابعة من حكمة تخصُّصه المشاركة في تشكيل الوعي.[31]

5– البيوتيقا بين الفلسفة والقانون:

إذا كان الحوار البيوإتيقي قد تأسس بين العلماء والأطباء والمفكرين؛ فإن الفلاسفة والحقوقيين اهتموا شيئا فشيئا بالمسألة البيوتيقية، لذلك فابتداء من منتصف سنة 1970، تحولت البيوتيقا إلى مؤسسة علمانية وحقوقية وسياسية، وأخذت الأنسنة المطلوبة عندئذ وجهة أخرى غير تلك التي رسمها لها المشاركون الأوائل في الحوار البيوإتيقي (حق الفرد في تقرير مصيره، وحق الطبيب في استعمال كل الموارد المتوفرة كي يستجيب لتوقعات المريض)، وتعتبر بمثابة وسيلة الأنسنة[32] . ومن ذلك الحين صارت الحقوق والإتيقا مرتبطتين إلى درجة لا نستطيع التمييز بينهما.

إن مهمة الفلسفة لا تراهن على مراقبة الطب وإيجاد القواعد القيمية للممارسة البيولوجية والبيوقانونية ، لأن ذلك من مهام القانون والسوسيولوجية؛ بل مهمتها النقدية تكمن في إعطاء الشرعية لأسئلة الأخلاقية ووضع تحدٍّ إبستيمي جديد لكل ممارسة علمية. الفلسفة –كذلك– ليست رقابة وإحراجا؛ بل صناعة للسؤال العلمي حتى يتحول إلى صناعة ثقافة للوعي الاجتماعي. وهكذا تتضافر جهود هؤلاء الفلاسفة والاجتماعيين والإنثروبولوجيين والنفسانيين وفقهاء القانون بتصورٍ فكريٍ تطبيقيٍ قانونيٍ لأخلاقيات الطب والبيولوجيا حين اتخذت طابعا أكثر إلزامية، حيث تم تقييدها

بالقانون، "فعلاقة البيوتيقا بالقانون" موضوع قائم بذاته للحفاظ على كرامة الانسان الإنسان، ينبغي تبنيه وتشجيعه والعمل على تطويره وفق القوانين والمعاهدات دوليا ووطنيا ومحليا. لذا فإن أخلاقية البيولوجيا أثارت نشاطا نضاليا عالميا يسهم بالفعل في تحقيق المثل العليا للعدالة على الصعيد العالمي؛ بفضل العمل الذي تضطلع به اللجان الطبية واللجان الوطنية المعنية بالأخلاقيات، فإن ذلك يمثل رهانا عملت على تحقيقه منظمة اليونسكو عندما شكلت اللجنة الدولية لأخلاقيات البيولوجيا، من أجل إعداد مبادئ توجيهية من شأنها تعزيز المجال الحيوي استنادا إلى حقوق الإنسان[33]، مما يعزز تلاقحا علميا بين البيولوجيا والقانون في خدمة الإنسان.

ونشير هنا إلى الفكر المعاصر الذي ساهم من خلال النزعة العقلانية الإنسانية التي أخذت على عاتقها الحيطة والحذر، مؤكدة أننا إذا لم نتخذ الاحتياطات اللازمة؛ ولم نقيد العلم والتقنية بعقال القانون والأخلاق وحقوق الإنسان؛ وتركنا لعلماء الهندسة الوراثية حرية تعديل جينات الجنس البشري كما يشاؤون؛ فسنسير لا محالة نحو تطور غير طبيعي للجنس البشري، أو ما نسميه في تصورنا التطور المقلوب، فقد يقودنا إلى مصير مجهول، ويفقدنا إنسانيتنا.[35]

وهنا يبرز دور القانون لرسم الحدود بين الممكن والمحظور، وبين الحقوق والواجبات، هكذا تتعاون البيوتيقا مع القانون لحماية كرامة الإنسان.[36]

7-الأخلاق التطبيقية من الصحة إلى التنمية:

إن الارتباط بين الأخلاق التطبيقية وحقوق الإنسان هو ارتباط بالتنمية الإنسانية، خاصة الجانب الصحي منه باعتباره مؤشرا بالغ الأهمية يتوافق مع المقتضيات والتحديات التي يواجهها عصرنا. هذه هي النزعة الجديدة أو المجددة التي نربطها في دراستنا بالعنصر البيولوجي والأخلاقي[37] للطبيعة الإنسانية التي ينبغي الحفاظ عليها بصورة مباشرة وفورية، فبرغم الفوائد المحتملة الكثيرة التي يمكن أن تجنيها البشرية من

تقنيات الهندسة الوراثية، فهناك مخاوف وتساؤلات كثيرة تثيرها هذه التقنيات؛ فما هو مصير الأسرة، ما هو مصير (مفهوم) الأمومة؟ ثم ما هو مصير الطفل نفسه؟ هل ينتسب إلى الأم أم إلى الجهاز الذي نما فيه؟ وإن كنا سنشتري ونبيع الأجنة الحية؛ فهل نحن في الطريق إلى استحداث شكل جديد من أشكال العبودية؟ ولأن التجربة العلمية أثبتت أن العلم ذو حدين؛ فإنه يقع على عاتق الفلسفة السعي إلى مناقشة مدى خطورتها على أساس أن الإنسان كان أحد أهم موضوعاتها، ومن ثمة فلابد لأخلاقيات التطبيقية أن تتخذ موقفا منفتحا ومتسامحا يرمي إلى اعتماد قواعد وقوانين تحترم الهوية المتعددة للمجتمعات والثقافات والتقاليد والمعتقدات دينية،[38] لعل هذا ما يحفز على تشجيع العلاقة بين[39] السلطة الطبية والسلطة المنوطة بحقوق الإنسان، كالنزعة الإنسانية جديدة في الفكر المعاصر أصبحت تتبناه الأمم المتحدة في برنامجها الإنمائي داخل نهج التنمية البشرية. وبما أننا نعيش عالما متعدد المفاهيم والثقافات من شأنه أن يجعل التقاليد الأخلاقية متعدد ومتخالفة؛ فيمكن أن نعد الاتفاقيات الدولية الخاصة بحقوق الإنسان قاعدة لأخلاقيات طبية متبناة عبر كل الحدود القومية والثقافية، فلو لم تكن فكرة التنمية تنطوي في حد ذاتها على بعد أخلاقي يضمن تحقيق الأداء والفاعلية؛ لما كانت هناك أصلا إشكالية إنمائية. ومن وجهة أخرى، فإننا نعتقد أن تنمية الإنسان صحيا يعد هاجسا ومعيارا للتقدم، لذلك لا ينبغي فهم الحق في الصحة على أنه الحق في التمتع بصحة جيدة فقط، فالحق في الصحة يشمل حرياتٍ وحقوقا على حد سواء، أما الحريات فتضمن حق الإنسان في التحكم في صحته وجسده بما في ذلك حريته الجنسية والإنجابية والحق في أن يكون في مأمن من التجريب الطبي عليه بدون رضاه، وأما الحقوق فتشمل الحق في الاستفادة من نظام للحماية الصحية يتيح التكافؤ في الفرص أمام الناس للتمتع بأعلى مستوى من مؤشر الصحة يمكن بلوغه.

وعليه، نعتبر غرس التنمية ومفاهيمها النبيلة أساسا للأخلاق التطبيقية ورافدا أساسيا وقويا في اكتمال منظومة مكارم الأخلاق، وهكذا يتحقق رقي الأمم وتقدمها وسر سعادتها واطمئنانها.

الخاتمة:

إن نشأة أخلاقيات البيولوجيا الطبية وبزوغها يعود إلى عوامل تاريخية واجتماعية، فمنذ نحو خمسين عاما أتاح التقدم الهائل المحرز في العلوم الطبية آفاقا جديدة للبحث[40] العلمي لا يتطرق إليها الشك في مجال صحة الإنسان، لكن من جهة أخرى، بات هذا التطور لا يصب كله في مصلحته، فليس كل ما هو متاح تقنيا يكون بالضرورة متاحا أخلاقيا، حتى أننا نواجه بعض التحديات في حاضرنا لم نكن نتصورها على المستوى الأخلاقي قبل عقدين من الزمن[41]. فالإمكانيات المتاحة اليوم يتم بها التغيير من جوهر الكائن الحي الإنساني الذي يمثله الجانب الوراثيgénétique ، وذلك الأمر الذي يدعو إلى تخليق طبيعة الإنسان كنوع أسمى بعدما أضحى مفروضا مسايرة هذا التقدم التقني، حين انتقلت الأخلاق من مجال السلوك والقيم والمعايير والأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسة إلى العالم الداخلي للإنسان، أي إلى مستوى جديد يتعلق بالتركيب البيولوجي لأعضاء وخلايا وأنسجة الجسد الإنساني.

وخلاصة القول أنه إذا كانت الفلسفة حب للحكمة، فإنها كذلك فكرا حواريا، والحوار طريق لإنتاج المعرفة والمواقف الجريئة من الأحداث العلمية والاجتماعية والإنسانية، لذلك فهي مطالبة اليوم أكثر بالاهتمام بالواقع بوصفها شكلا من أشكال الوعي الاجتماعي؛ بعد أن بات العالم في تغير متسارع، فما نشهده من تطورات يفرض على الفلسفة الحضور الآني وإعادة تحديد مهامها وبناء أفكارها مع كل مستجد، وأن لا تبقى أسيرة منطق هيجل الذي حكم عليها بتأخر حضورها مثل طائر النيرفانا.

النتائج:

1/ إن الحديث عن البيوتيقا هو الحديث عن الفلسفة بامتياز، أي أن درس الأخلاق درس الفلسفي العظيم، وهو مهم في ظل التقدم الذي يعرفه الطب، والذي كثيرا ما يراد من خلاله الأطباء الدوس على القيم من أجل إنجاح تجاربهم خاصة، لذلك تمثل الفلسفة الضمير والحصن المنيع للإنسانية، في مقابل لا عقلانية العقلانية للفكر المعاصر بحسب المفكر إدغار موان.

2/ إن البيوتيقا أضحت اليوم مرجعية لمواجهة التحديات لمخرجات الثورة العلمية الجديدة في عدد من المجالات، وخصوصا ما يتصل بتغيير أنماط الحياة في الكون، والتي تنشغل بتعديل الكائنات وتهدد التنوع البيولوجي، مثل القدرة على تغيير الجينوم البشري ومنه الى تغيير الجنس البشري.

3/ الفلسفة تمارس في الخارج كما تمارس في الداخل(الإنسان).

الهوامش والإحالات:

*توماس هوبز: فيلسوف إنجليزي يعد من أشهر فلاسفة القرن السابع عشر خاصة في المجال القانوني، أهم كتبه

[1]-نورة بوحناش وآخرون البيوتيقا إنجاز أخلاقي؟ داخل العلم –الأخلاقيات التطبيقية –جدل القيم والسياقات الراهنة للعلم ،إشراف وتنسيق خديجة زتيلي ،منشورات الاختلاف ، ط01 ، الجزائر، 2015، ص27–28

[2]- ناهد البقصمي، الهندسة الوراثية والأخلاق المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب سلسلة عالم المعرفة ،الكويت ،1993 ،ص 56

[3]-المرجع نفسه، ص 57

[4]- المرجع نفسه، ص 24

[5]- المرجع نفسه، ص 28

*- جاستون باشلار: فيلسوف وفيزيائي فرنسي، برزت مساهمته في فلسفة العلوم، أغنى الساحة العلمية بمفاهيم و أطروحات علمية، أهم كتبه: العقل العلمي الجديد، تكوين العقل العلمي، العقلانية التطبيقية.

* يورغن هبرماس:(1929–)فيلسوف ألماني يعد من الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت المعروفة بالمدرسة النقدية، وأكثرهم شهرة في الحقبة المعاصرة، عاصر الانظمة الأنظمة الاستبدادية في القرن العشرين.

[6]- زروخي دراجي ،العلوم الإنسانية والإجتماعية الاجتماعية وإشكاليات القيم في الأبحاث العلمية ، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، المجلد 08،العدد 03، 2017،ص 250.

[7]- رائد عبيس الحسناوي ،بورهوس فريدريك سكينر ،معجم الفلاسفة الأمريكان–من البراجماتيين الى إلى ما بعد الحداثيين، إشراف وتحرير علي عبود المحمداوي، تقديم محمد الشيخ، منشورات الاختلاف ،ط01،الجزائر،2015،ص304 هانس جوناس

*هانس جوناس: فيلسوف ألماني من أصول يهودية يلقب بفيلسوف الفكر البيئي، من أبرز دعاة الموازنة بين الطبيعة والإنسان، ناقدا ناقد للحداثة، له قراءة مهمة في مجال البيوتيقا، من أهم كتبه مبدأ المسؤولية.

*لمفهوم الطبيعة البشرية مدلولان: المدلول البيولوجي المتمثل في DNA أو الجينوم أو ما يشكل الخصوصية النووية للكائن الحي، والمدلول الأخلاقي أو الميتافيزيقي الذي يشير إلى كرامة الإنسان أو إلى قدسيته أو إلى خصوصيته الأخلاقية التي هي أمر غير قابل للاختراق أو الاستلاب.

[8]- نفس المرجع ،ص 02

[9]- محمد بن سباع ،الجسم بين العلم والأخلاق –فرنسوا داغونيه أنموذجا،الأخلاقيات التطبيقية جدل القيم والسياقات الراهنة للعلم ،إشراف وتنسيق خديجة زتيلي، منشورات الإختلاف الاختلاف ، ط01 ، الجزائر، 2015، ص 206–207.

[10]- محمد بن سباع ،الجسم بين العلم والأخلاق المرجع سابق ،ص.207

[11]- محمد عابد الجابري ،قضايا في الفكر المعاصر، مركز الدراسات للوحدة العربية ، ط1،بيروت ،1997، ص 65

[12]- محمد بن سباع ،الجسم بين العلم والأخلاق ،فرنسوا داغوني أنموذجا ،مرجع سابق ،ص 208

[13]- محمد بن سباع ، ،مرجع سابق ،ص 208

[14]- محمد بن سباع ، ،مرجع سابق ، ،ص 218

[15]- زهير الخويلدي وآخرون ، تعقد الطبيعة البشرية عند إدغار موران الفلسفة الغربية المعاصرة صناعة العقل الغربي من مركزية الحداثة إلى التشفير المزدوج، الجزء 2 ،ط1، إشراف وتحرير علي عبود المحمداوي ، تقديم علي حرب، منشورات الضفاف ،المغرب،2013، ص 1407

* - إدغار موران: مفكر فيلسوف وعالم الاجتماعي فرنسي من أصول يهودية، يعرف بنظرية التعقيد، أو الفكر المركب، عاصر أحداث القرن العشرين وعرف بفيلسوف الإنسانية، من أهم كتبه نهج إنسانية البشرية، إلى أين يسير العالم،الفكر المركب

[16] التربية والعلم والثقافة ،رسالة اليونسكو، العدد64، ديسمبر 2011 ص،39

[18]-عائشة الحضيري واخرون وآخرون، ما بعد الإنسان خطابات ما بعد الحداثة في استنفاذ أو تعديل المشروعات الفلسفية، تقديم علي عبود المحمداوي، منشورات دار الاختلاف،ط1 ،الجزائر،2013،ص38

* يقدم كانط Immanuel Kant، تصوره عن كرامة الإنسان في كتابه "أساسيات الميتافيزيقيا والأخلاق"، حيث يرى أن الإنسانية لا تتمتع بالكرامة ما لم تنضبط بالأخلاق، بمعنى أن البشر لا يتمتعون بكرامتهم بمجرد أنهم بشرٌ، ولكن بالممارسة الحرة لإرادتهم في التزامهم بالأخلاق. أي أن الأخلاق تستند إلى الأفعال المتعلقة باستقلاليّة الإرادة، وبالتالي فإن الحكم الذاتي هو أساس الكرامة الإنسانية.

[19]- نعيمة دريس وآخرون، رؤية العلم الحديث للعالم والإنسان وضرورة أخلاق تطبيقية للعلم ،الأخلاقيات التطبيقية –جدل القيم والسياقات الراهنة للعلم، مرجع سابق ، ص 339

[20]- هبة عادل، التقدم العلمي –التقني وأزمة العالم (قراءة في فلسفة إدغار موران)، مجلة الآداب، العدد 111سنة 2015 جامعة بغداد،ص 612

[21]- المرجع نفسه،ص 613

[22]- المرجع نفسه، ص 613-614

[23]- نعيمة دريس وآخرون، رؤية العلم الحديث للعالم والإنسان وضرورة أخلاق تطبيقية للعلم ،الأخلاقيات التطبيقية –جدل القيم والسياقات الراهنة للعلم مرجع سابق، ص234

[24]- محمد عابد الجابري ،قضايا في الفكر المعاصر، مرجع سابق ،ص 65

[25]-محمد عابد الجابري ،قضايا في الفكر المعاصر، مرجع سابق ،،ص66

[26]- محمد جديدي ،البيوتيقا ورهانات الفلسفة القادمة مركز الدراسات والابحاث الأبحاث ، قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية ،المغرب ، ماي 2016،ص 03 بحث محكم قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية .متاح على الموقع الإلكتروني www.mominoun .com

[27]- أم الزين المسكيني وأخرون ،هانس جوناس ،المرجع نفسه،ص،973

[28]- أم الزين المسكيني وآخرون ،هانس جوناس ،المرجع السابق،ص944

[29]- علي عبود المحمداوي ،الإشكالية السياسية للحداثة–من فلسفة الذات الى إلى فلسفة التواصل هبرماس أنموذجا، منشورات الاختلاف ،ط1،الزائر ،2013،ص175.

[30]- علي عبود المحمداوي ،الإشكالية السياسية للحداثة– مرجع سابق ،ص175

[31]- العمري حربوش وآخرون ، فرنسوا داغوني، الفلسفة الغربية المعاصرة صناعة العقل الغربي –من مركزية الحداثة إلى التشفير المزدوج ، منشورات الضفاف ،بيروت ،2013،ص14440

[32]- المرجع نفسه ،ص 1444

[33]-العمري حربوش وآخرون، فرنسوا داغوني، موسوعة الفلسفة الغربية المعاصرة صناعة العقل الغربي مرجع سابق ، ص 1458 فرانسوا داغوني

* - فرانسوا داغوني:(1924–) طبيب و فيلسوف وإبستمولوجي فرنسي تلقى تكوينه العلمي والفلسفي على يد الفيلسوف الفرنسي جورج كانغيلهام، حصل على شهادة الدكتوراه في الطب سنة 1958

[34]- المرجع نفسه، ص 1466

[35]- المرجع نفسه، ص 1468

[36]- العمري حربوش وآخرون، فرنسوا داغوني، موسوعة الفلسفة الغربية المعاصرة صناعة العقل الغربي –من مركزية الحداثة إلى التشفير المزدوج مرجع سابق ، ص ،ص 1469

[37]- هبردوسيه ،اللاهوت وتطور البيوتيقا االأمريكية ،ترجمة محمد جديدي ،موقع الكتروني الموقع الإلكتروني مؤمنون بلا حدود ، قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة ، المغرب ،2017 ،ص 07

[38]- سلفادور بيرغيل، أخلاقيات البيولوجيا ،حصن الإنسانية المنيع ، مرجع سابق ،ص،40

[39]- المرجع نفسه ،ص39

[40]-بوفتاس، أثر فلسفة الحق الكانطية في تأسيس البيواتيقا، ضمن أعمال المائدة المستديرة: فلسفة الحق: كانط والفلسفة المعاصرة، تنسيق: محمد المصباحي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2007، ص232–233

[41]- عبد الرزاق ، حوار العلم والفلسفة والأخلاق في مطالع الألفية الثالثة، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، 2004، ص48